الرسالة

(رومية ١٥: ١–٧)

يا إخوةُ يجبُ علينا نحنُ الأقوياءَ أن نحتَمِلَ وَهَنَ الضُعفاءِ ولا نُرضِي أنفسَنا* فليُرضِ كلُّ واحدٍ منَّا قريبَهُ للخيرِ لأجلِ البُنيان* فإنَّ المسيحَ لم يُرضِ نفسَهُ ولكن كما كُتِبَ تعييراتُ معيِّريكَ وقعت عليَّ* لأنَّ كلَّ ما كُتِبَ من قَبلُ إنَّما كُتِبَ لتعليمنا ليكونَ لنا الرجاءُ بالصبرِ وبتعزيةِ الكتب* وليُعطِكم إلهُ الصبرِ والتعزيةِ أن تكونوا متَّفقي الآراءِ فيما بينكم بحسَبِ المسيحِ يسوع* حتَّى إنَّكم بنفسٍ واحدةٍ وفمٍ واحدٍ تمجِّدون اللهَ أبا ربِّنا يسوعَ المسيح* من أجلِ ذلك فليتَّخذ بعضُكم بعضاً كما اتَّخذكم المسيحُ لمجدِ الله.

سمات الخليقة الجديدة

تضعنا الكنيسة المقدسة من خلال المقطع الإنجيلي الذي يُقرأ اليوم (مت ٩: ٢٧ – ٣٥) أمام معجزتين: شفاء الأعميين وشفاء الأخرس بعد طرد الشيطان منه. وبعد كل معجزة نرى المحرَّرين من خطاياهم يسبّحون الله ويذيعون بعجائبه في كلّ العالم كما فعلت المرأة السامريَّة (يو٤).

الإصحاحات ٥، ٦، و٧ من إنجيل متى هي العظة على الجبل وفيها يضعنا يسوع في إطار الخليقة الجديدة التي جاء «لكي يقدّسها، مطهّراً إياها بغسل الماء بالكلمة، لكي يعدّها لنفسه كنيسة مجيدة، لا دنس فيها ولا غضن أو شيء من مثل ذلك، بل تكون مقدسة وبلا عيب» (أف ٥: ٢٦–٢٧). أمَّا في هذا المقطع فنحن أمام سمات هذه الخليقة الجديدة: أعين مفتوحة ترى الله، ومن عرف الله تنفك عقدة لسانه ويخرج إلى تسبيحه في كل حين.

العدد ٣٢ / ٢٠١٦

الأحد ٧ آب

تذكار الشهيد في الأبرار دوميتيوس

اللحن السادس

إنجيل السَحَر السابع

اللافت في هاتين المعجزتين أن يسوع لم يقمهما في الخارج بل في البيت «ولما جاء إلى البيت تقدم إليه الأعميان» (مت٩: ٢٨). البيت إنّما يُشير إلى التجسّد الذي بدونه ما كان يمكننا التلامس مع ابن الله، والتمتّع بإمكانيّاته الإلهيّة، ليهب لأعيننا نوره، فتعاين النور. بسبب الخطيئة أُظلِمت بصيرتنا وبالتالي انحرفنا عن الطريق القويم. لذلك، تجسّد الرب من عذراء قديسة فأخلى ذاته «متّخذاً صورة عبدٍ وصائراً بصورة جسدنا الوضيع لكي يجعلنا مشتركين بصورة مجده» (من خدمة قداس القديس باسيليوس الكبير).

لقد أراد الرب يسوع المسيح من خلال شفاء الأعميين أن يُظهر لليهود وللأمم – لهذا يذكر الانجيلي متى أعميين وليس أعمى واحداً للدلالة إلى اليهود والأمميين – أنَّه هو «نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة» (يو ٨: ١٢)، وهو «الطريق والحق والحياة» (يو ١٤: ٦). يقول أحد المفسرين: «جاءنا الملتحف بالنور كثوب (مز ١٠٤: ٢)، الذي ليس

فيه ظلمة البتة (١يو ١: ٥)، يشرق في الظلمة بنوره (إش ٥٨: ١٠)، نلبسه فنصير أبناء نور وأبناء نهار (١ تس ٥:٥)، بل نصير به نورًا للعالم (مت ٥: ١٤)». هذه الإستنارة نستمدها من خلال المعمودية التي من خلالها نخلع الإنسان القديم بظلمته لنلبس الإنسان الجديد المستنير بالروح القدس معاينين مجد الله. فالمسيح قادر أن يفتح بصيرتنا الروحيَّة شرط أن ندرك أولاً أنَّنا عميان وأنَّنا بدونه لا نصل إلى الملكوت السماوي بل إلى الظلمة، وثانياً أن نصرخ مثل هذين الأعميين قائلين «ارحمنا يا ابن داود» (مت٩: ٢٧) عندها يستجيب لصلاتنا ويفتح أعيننا فنعرفه ويعلن لنا ذاته. والأهم من ذلك هو الإيمان. «أتؤمنان أني أقدر أن أفعل هذا؟» قالا له: «نعم، يا سيد!» (مت٩: ٢٨) بدون إيمان لن تحدث المعجزة.

أمَّا شفاء الأخرس بعد طرد الشيطان منه، فيعلّمنا أن للشيطان قوة رهيبة ليس لها نظير في الكون. هو يستطيع أن يدخل في الإنسان ويسيطر على أعضائه ويوقع به الضرر. هذا ما يفعله الشيطان بكل خاطىء. فهو يسكت لسانه عن تسبيح الله (مز ١٣٧:١-٤). وكلما تعمَّق الإنسان في خطيئته يصبح كالمجنون. وما تصرف المجنون إلاّ الاندفاع وراء ما يؤذيه، والخاطئ يندفع وراء الخطيئة المهلكة والمميتة. يقول أحد المفسرين: «لا يمكن للبشريّة الصامتة زمانًا هذا مقداره أن تتحدّث مع خالِقها، ولا أن تسبّحه داخليًا وتشكره، حتى وإن سبَّحته بالفم واللسان، فقد صمت اللسان الداخلي عن الحديث السرّي الخفي مع الخالق، بسبب العداوة التي نشأت كثمرة طبيعيّة للخطيئة، فصارت كمن يسكنها شيطان أخرس. لهذا جاء السيّد المسيح طاردًا روح الشرّ والخطيئة، فينطق لسانها الداخلي بالشكر والتسبيح، وتصير طبيعتها شاكرة عِوض الجحود القديم».

لم يكن مرض الأخرس طبيعياً بل كان ناتجاً عن تأثير شيطاني شديد. لذلك كان بحاجة إلىً من يقوده إلى يسوع. لم يستطع طبعاً وحده أن يتوسَّل إلى الرب لأنَّه كان أخرس ولا أن يطلب من الآخرين لأنَّ الشيطان «يربط لسانه ومع لسانه نفسه» يقول القديس يوحنا الذهبي الفم. لم يطلب الرب يسوع منه إيماناً كما فعل مع الأعميين، بل بادر هو إلى شفائه.

الشفاء وحده لا يكفي، بل لا قيمة له إن توقّف الأمر عند هذا الحد. المهم أن تشكر الله وتسبّحه ناقلاً البشرى السارة للآخر. الأعميان ذهبا يصيحان في الأرض كلها بمَّا فعله يسوع معهما، والأخرس تكلَّم بعد طرد الشيطان. من يرى النور لا يقدر أن ينظر إخوته سالكين في الظلمة بل يدعوهم إلى النور الذي ينعم به، كما فعلت المرأة السامريّة التي تركت جرّتها وخرجت إلى مدينتها تقول للناس: «هلمّوا، انظروا إنسانًا قال لي كل ما فعلت، ألعلّ هذا هو المسيح؟» (يو٤: ٢٩). يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: «علِموا الذين هم من خارج أنَّكم في صحبة طغمة السيرافيم، محسوبين مع السمائيّين، معدِّين في صفوف الملائكة، حيث تتحدّثون مع الرب، وتكونون في صحبة السيّد المسيح».

نسأل الرب الإله أن ينير بصيرتنا بروحه القدوس لكي نعاين نوره القدوس كما عاينه تلاميذه في التجلي، فنسلك الطريق القويم التي توصلنا إلى ملكوته السماوي ونمجِّد الله ونشكره على كل عطاياه صارخين: «قدوس قدوس قدوس رب الصباؤوت، السماء والأرض مملوءتان من مجدك».

الإنجيل

(متى ٩: ٢٧-٣٥)

في ذلك الزمانِ فيما يسوعُ مجتازٌ تبعهُ أعميانِ يَصيحان ويقولان ارحمنا يا ابنَ داوُد* فلمَّا دخل البيتَ دنا إليهِ الأعميانِ فقال لهما يسوعُ هل تؤمنانِ أنّي أقدِرُ أن أفعلَ ذلك. فقالا لهُ نعم يا ربُّ* حينئذٍ لمس أعينَهما قائلًا كإيمانِكُما فليكُنْ لكما. فانفتحت أعينُهما. فانتَهرهما يسوعُ قائلاً أنظُرا لا يَعلَمْ أحدٌ* فلمَّا خرجا شَهَراهُ في تلك الأرضِ كلّها* وبعد خروجهما قدَّموا إليهِ أخرَسَ بهِ شيطانٌ* فلمَّا أُخرِجَ الشيطانُ تكلَّمَ الأخرسُ* فتعجَّبَ الجموعُ قائلين لم يَظْهَرْ قطُّ مِثْلُ هذا في إسرائيل* أمَّا الفريسيون فقالوا إنَّهُ برئيسِ الشياطين يُخرِجُ الشياطينَ* وكانَ يسوعُ يطوفُ المُدنَ كلَّها والقرى يعلِّمُ في مجامعِهِم ويكرِزُ ببشارةِ

الملكوتِ ويَشفي كلَّ مَرَضٍ وكلَّ ضُعفٍ في الشعب.

تأمل

«ليكون لنا الرجاءُ بالصبر وبتعزية الكتب».

كل عملٍ هدفه خلاص النفوس يُهاجم منذ البداية. عندما وُلد المسيح، انفجر غضب هيرودس. وأنت إن أُهّلتَ أحياناً لتخدم الله بأي طريقة، ستحتمل كثيراً وستتألم كثيراً وستجابه الأخطار كثيراً. لا تتفاجأ أو تضطرب، ولا تتساءل: «أنا أنفّذ مشيئة الله ويجب أن أَمَجد لأجل ذلك وأتكلّل. لماذا إذاً أحتمل؟». حينها تذكّر المسيح الذي اضطُهد حتى الموت وأعلمنا مسبقاً: «إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم أنتم أيضاً» (يو ١٥: ٢٠). لكنه أعطانا وعداً: «ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص» (متى ١٠: ٢٢). إن اهتمّ أحد ما بخلاصه، فمستحيل أن يضيع. لن

الشيخ يوسف الهدوئي

في الثاني عشر من شباط سنة ألف وثمانمئة وسبعة وتسعين وُلد الشيخ يوسف، إبناً ثانيا لجورج وماريا كوتّيس، أبوين ورعين من بسطاء الشعب في جزيرة ياروس اليونانية. أسمياه آنذاك فرنسيس. كان ما زال مراهقاً عندما توفّي والده، فاضطر للانتقال إلى مدينة بيريوس المرفأية من أجل العمل والمساهمة في إعالة والدته وإخوته. عمل لدى البحرية بداية ثم تنقّل بين التجارات الصغيرة، وحيثما عمل كان بالغ التشدد في الصدق والأمانة، بتأثير من تربيته البيتية. في مطلع عشريناته بدأت تستهويه مطالعة سير القديسين وكتابات النسّاك. في الفترة عينها خُطب إلى فتاة مؤمنة فاضلة، علاقته بها كانت في منتهى العفاف، وقُبَيل الموعد المحدد لزواجهما توفيت بداء السلّ. الكتب الروحية كانت تعزيته، وصار يميل أكثر فأكثر إلى العزلة في الصلاة كلما استطاع إليها سبيلاً، وزيارة الكنائس والأديرة للسجود والتبرُّك. كان بعد في العالم وانشغالات العالم ولكن قلبه كان يميل أكثر فأكثر، كل يوم، إلى التوحّد كلّياً في الله. ذات يوم ارتحل حاجّاً إلى دير القديس جيراسيموس في جزيرة كيفالونيا وهناك شهد بأم العين شفاءً عجائبياً باهراً فازداد شوقه إلى التوحّد، كذلك سمع من راهبة هناك أن القدّيس جيراسيموس رقد يوم عيد رقاد الكلّية القداسة والدة الإله. إذذاك، وكما روى هو فيما بعد، وجد نفسه لا شعورياً يصلّي، بحرارة بالغة، أن يكون رقاده هو أيضاً، يوم هذا العيد العظيم. سنة ١٩٢٢، وبعد أن جهّز شقيقته وزوّجها، وترك ما بقي له من مال لعائلته، انتقل إلى آثوس الجبل المقدّس عاقداً العزم على الاستقرار هناك راهباً متوحّداً في الله. في البداية تنقّل الشاب فرنسيس قليلاً حيثما قاده البحث عن أب روحي يحضنه، إلى أن شُرطن راهباً في أحد مناسك كاتوناكيا (إحدى أكثر نواحي الجبل المقدّس قسوة ووعورة). لن نخوض ههنا في تفاصيل سيرة هذا الشيخ البار (سيرته موجودة ضمن «منشورات التراث الآبائي»)، بل سنحاول الإضاءة، قدر الإمكان، على شخصيته الروحية. نشير فقط إلى أنّ رقاده المبارك كان صبيحة الخامس عشر من آب سنة ١٩٥٩، يوم عيد رقاد الكلّية القداسة والدة الإله، تماماً كما اشتهى وهو بعد شاباً صغيراً في العالم.

منذ كان بعد في العالم، وحتى آخر حياته، تميّز الشيخ يوسف بقوة العزم وصلابة الإرادة، وبالجدّية التي تنتج طبيعياً عن هاتين. منذ مال قلبه إلى النسك ابتدأ يروّض نفسه وكأنّه اصبح بالفعل راهباً، ومن يومه الأول في الجبل المقدّس ابتدأ يجاهد في الصلاة والأصوام والسهر والطاعة والحبّ وترويض الذات، بجدّية وحماسة بالغتين ما فارقتاه حتى آخر أيامه. قسوة الجهادات، وبالرغم من أنّه قطع فيها أشواطاً، لم تكن بالنسبة إليه غاية البتة بل مجرّد «وسيلة للتحرّر من ثقل الأرض»، كما كان يقول. الاتحاد بالله، الامتلاء كلياً من الله، منذ هذه الحياة، كانت غايته المنشودة. أما تشدّده في الجهادات، بما فيها نظامه الصارم جداً في الصوم والسهر، فكان بالنسبة إليه للوقاية من «شيطان الإهمال مُبعِد المؤمن عن الله». لا بد من التوقّف لحظة عند هذه الفكرة إذ إنّها لا تخصّ النساك والرهبان وحسب،

بل المؤمن عموماً أينما كان وكائناً من كان. خطورة الإهمال أو التهاون أو التراخي أنّه يتسلّل إليك رويداً رويداً، وعبر حجج منطقية، فتجد نفسك وقد صرت ـ من حيث لا تدري ـ بعيداً عن الله بارداً.

طيلة حياته أحبّ الشيخ يوسف التواضع بل وعشقه وجدّ في إثره بلا هوادة حتى رمقه الأخير. التواضع بالنسبة إليه هو السبيل الأوحد إلى الكمال، والتواضع هذا ليس بالكلام، أي أن يقول الإنسان «أنا خاطئ» (ولو كان يعنيها بصدق). يبلغ الإنسان هذا التواضع عندما يعي أنّه «لا شيء»، كتلك الـ«لا شيء» التي كانت قبل أن خلق الله العالم. أي أن تُفرغ ذاتك كلّياً، من ذاتك ومن كلّ ما تجمّع عليك من هذا العالم، فتصبح الـ«لا شيء» فيعيد الله خلقك، ليعود إذذاك «كل شيء حسن». ومع أنّه لم يكن لاهوتياً بالمعنى الأكاديمي للكلمة، ولا حتى «مثقّفاً» بالمعنى المُتعارَف عليه، أتقن الشيخ يوسف الهدوئية (هي نظام نسكي يجاهد فيه الراهب للعيش في حياة سكينة وصلاة، تركز على ترداد صلاة يسوع: ربي يسوع المسيح ابن الله، ارحمني أنا الخاطئ). اللاهوت الحقيقي المُعاش لا النظري «كما يتقن الحِرَفي حِرفَته»، على حد تعبير أحد الشيوخ أبنائه. قراءة الأسفار الإلهية وكتابات الآباء لازمته على الدوام. عن هذه كان يقول «المثابرة في قراءة الأسفار المقدّسة وكتب الآباء هي كالنظر في مرآة روحية بالغة النقاء. فهي تُريك خطاياك وأهواءك فتمكّنك إذذاك من تصحيح مسارك وتحقيق توبتك. إنها كالنور في الظلمة». كان يشدّد على ضرورة القراءة يومياً في الأناجيل الشريفة، وغالباً ما كان يقول لزوّاره «ضع كتاب عهد جديد صغيراً في جيبك لكي ترجع إليه وتقرأ فيه كلّما تسنّى لك بعض الوقت في نهارك. فكلّما قرأت أنارك الله وعلّمك كيف تحفظ وصاياه، عندها يجدّد الحب فيك وينقّيه ويجدّد فيك التوق إلى الملكوت».

جدّيته وشجاعته في ترويض الذات والسعي إلى الله جعلتا الشيخ يوسف الهدوئي يعيش حسّياً، مراراً، اختبار الحضرة الإلهية لا سيّما وأنّه تعمّق كثيراً في الصلاة القلبية. هذه الخبرات جعلته يصبح من ذوي «الإيمان اليقين»، أي الإيمان المُختَبَر أو عندما يصبح المرء مؤمناً لا بعقله وحسب بل بكلّ كيانه. بمعنى آخر، وبحسب تعبير الشيخ، «عندما يصبح العقل عينين روحيتين تعاينان الله». الإيمان بالعقل هو مرحلة لا بد منها، بلا شك، بل وينبغي تنقيته على الدوام وتغذيته بالمعرفة وتنميته. لكن، لأن العقل البشري محكوم بمحدودية المنطق البشري، لا بد من الانتقال إلى مرحلة الاختبار، بقدر ما يسمح به الله، وهو وحده العالم بحال كل واحد وحاجته وطاقته. إذاً كلّما ازداد في المرء هذا اليقين الكياني، كلّما تحرر إيمانه من خطر الشكوك التي تأتي طبيعياً من النشاط الفكري والتي غالباً ما تزعزع الإيمان وأحياناً تُفنيه. «إن اشتدّت عليك التجارب وصارعتك فكرة ان الدنيا قاسية عليك، لا تقل أين هو الله؟ الله هنا، في كل مكان، وفي كل وقت، ولن يدعك تهلك. فقط أنت اصبر، ودع الله ينمّيك»، يقول الشيخ القدّيس.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb

يهمله الله في الصعوبات والأخطار. ماذا قال الرب لبطرس؟ «سمعان سمعان، هوذا الشيطان يطلب لكي يغربلكم كالحنطة ولكن طلبتُ من أجلك لكي لا يفنى إيمانك» (لو ٢٢: ٣١-٣٢).

عندما يرى الله أنّ عبء التجارب يفوق طاقاتنا، يبسط يده ويخفّف عنا الحمل الزائد، لكن إن رأى أننا لا نبالي بخلاصنا، يتركنا من دون مساعدة.

الله لا يضغط على أحد ولا يجبر أحداً. لا يبالي بغير المستعدّين وغير المبالين، بل على العكس، يسحب المستعدّين والمؤمنين إلى جانبه برغبةٍ شديدة. يقول الرسول: «الله لا يقبل الوجوه بل في كلّ أمةٍ الذي يتّقيه ويصنع البرّ مقبول عنده» (أع ١٠: ٣٤-٣٥).